

أطفالنا وحب الدين



بما أن العالم أصبح كالقرية الصغيرة، والفرد تتناوشه الأفكار المتضادة والمختلفة من كل ناحية، والتي قد تصده عن دينه، أو تشوش عليه عقيدته، فوجب التسلح بالثقافة الدينية؛ ليكونوا على بصيرة من أمرهم، ويواجهوا هذه الأفكار بعقول واعية؛ لذا فإن غرس الثقافة الدينية في مرحلة الطفولة يؤثر تأثيراً بالغاً في تقويم سلوك الطفل، وحسن استقامته في المستقبل، فينشأ نشأة سليمة، باراً بوالديه، وعضواً فعالاً في المجتمع.

وذلك بأن نحب ديننا أو ولاً - لأن الطفل يرى بعيون والديه أو مربيه - ثم نراعي ظروف الطفل، ومشاعره، واحتياجاته، وإمكاناته في كل مرحلة عمرية، حتى يصبح - بعون الله - مسلماً سويلاً نافعاً لنفسه وأهله ومجتمعه ودينه، ولنتذكر جيداً أن التربية النفسية للطفل تعتمد على أنفه: عندما يعيش في ظل النقد المستمر، فإنفه يتعلم أن يدين الآخرين، وعندما يعيش في ظل الأمن، فإنفه يتعلم أن يجد الثقة في نفسه، وعندما يعيش في ظل العداوة، فإنفه يتعلم الهجوم، وعندما يعيش في ظل من يتقبلونه، فإنفه يتعلم الحب، وعندما يعيش في ظل الخوف، فإنفه يتعلم ترقب الشر، وعندما يعيش في ظل الاعتراف به، فإنفه يتعلم أن يكون له هدف، وعندما يعيش في ظل الشفقة الزائدة عليه، فإنفه يتعلم أن يتحسر على نفسه، وعندما يعيش في ظل التأييد له، فإنفه يتعلم أن يحب نفسه، وعندما يعيش في ظل الغيرة الزائدة، فإنفه يتعلم الشعور بالإنتم، وعندما يعيش في ظل الصداقة، فإنفه يتعلم أن العالم مكان جميل.

وإذا كان الحب شيئاً من خلق الله سبحانه، وهو الذي أودعه أمراً يعسر على الخلائق كلها - إنسيها ووحشيتها، جامدها ومتحررها، قويها وضعيفها، عاقلها وغير العاقل منها - أن تعيش بغيره، وأن يكون ائتلاف بينها - المتماثل والمتشابه، والمتنافر والمختلف، المتقارب والمتباعد - إلا به، وهو الوشيجة الخفية، التي تجمع، وانقطاعها، أو ضعفها، أو ذهابها، يفرق ويبعد ويباعد: إنفه السر العجيب الذي أقدره الله على مثل ذلك التأليف والجمع، وبدونه لا يكون شيء منه، فهل يكون حسناً ممن وهبهم الله العقل الذي يقدرهم على تلقي الخطاب الشرعي، وفهم فحواه، ليحملوه تكليفاً، على مقتضى الطاعة والإحسان، والإذعان المطلق، والتسليم الخالص - أن يقرؤوا قول الله سبحانه: (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُواْ فَعُدَّوْكَمْ فَاِنَّ حَسْبَكَ اللّٰهُ هُوَ الَّذِيْ اَيَّدَكَ بِتَصَدَّقِهِ وَبِالْمُؤْمِنِيْنَ * وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ لَوْ أَنْزَلْنَاهُ فَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَقْتُمْ بَيْنَ قُلُوْبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللّٰهَ أَلْفَقَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال/ 62-63)، فإذا ما قرأ مثل هذه الآية، علم أن ما كان من هذا التأليف بين قلوب الصحابة رضوان الله عليهم ما كان منه من شيء أن يكون إلا بالحب، وهو النعمة التي شغفت بها قلوبهم،

واستضاءت بها صدورهم، وارتحلت إليها إراداتهم، فالتقت جميعها على أمر قد قدر لها، واستجشت منها وجداناتهم، وأنالت منها من جاء من بعدهم من القرون الفارة في غيب المستقبل، حتى لكانت لها حاضرة فيهم، تراهم، وتسمعهم، وتلقف ما ترى وما تسمع على رجاء أن يكون منها لمن بعدها مثل الذي كان لها من أولئك الأعيان الأخيار من صحابة محمد (ص) الأطهار، حيث لا يعرف للآخرين إلا بمثل ما كانوا له وعليه ومنه وإليه، من إيمان وإسلام وإحسان. والحبُّ من أهمِّ الحاجات النفسية، ولذا حَفَلت السنَّة بكثير من مظاهر هذا الحب، وتختلف وسائل إشباع هذه الحاجة من مرحلة لمرحلة، ففي مرحلة الطفولة المبكرة يَلَدُّ للمربي ملاعبة الطفل وترقيصه ومداعبته بأرقِّ العبارات وتقبيله وضمه، وبعد أن يبلغ خمس سنوات يحبُّ الطفل أن يجلس قريباً من الوالدين، أو يضع رأسه على فخذ أحدهما، أو يقبلهما، أو غير ذلك، بل إنَّه تشتد حاجته عند رجوعه من المدرسة، أو من مكان لم يصحب فيه والديه، أو عند وجود مشكلة خارج البيت أو داخله، وفي مرحلة المراهقة يظل محتاجاً إلى الحنان والحبِّ من والديه، وذلك أنَّه قد يخجل من إظهار هذه العاطفة، وبخاصة إذا كان والداه ينتقدان حاجته للحبِّ أو ينكران أن يقبلهما أو يسند رأسه إليهما، أو يحسان بالانزعاج والتضايق عندما يعبِّر عن حبه لهما. وعدم إشباع هذه الحاجة يؤدي إلى انعدام الأمن، وعدم الثقة بالنفس، فيصعب على الطفل التكيف مع الآخرين، ويصاب بالقلق والانطواء والتوتر، بل يُعدُّ الحرمان من الحبِّ أهم أسباب الإصابة بمرض الاكتئاب في المستقبل، ومن الناحية الاجتماعية تحدث فجوة بين المربي والطفل عندما لا تشبع حاجته إلى الحنان، فيحس الطفل بالانقباض تجاه والديه، ويستقل بمشكلاته، أو يفضي بها للآخرين دون والديه، ويصبح عنده جوع عاطفية تجعله مستعداً للتعلق بالآخرين، والتعلق يتخذ صوراً كالإعجاب والحبِّ المفرط المؤدي إلى العشق المحرم.

الكاتب: عبد الله محمد الدرويش

المصدر: كتاب الأطفال الطريق إلى المستقبل